مصادر

د. رمضان عبد التواب

جلال الدين السيوطي

في كتابه

المزهر

علوم اللغة وأنواعها

كتاب

«المزهر في علوم اللغة وأنواعها» أشهر كتب جلال الدين السيوطي اللغوية ، بل إنه أشهر كتب فقه اللغة في العربية ، جمع فيه مؤلفه حصاد القرون الطويلة التي سبقته في الدراسات اللغوية عند العرب ، واستوعب فيه كل ما وصلت إليه يده من مؤلفات السابقين ، في القضايا التي أثارها في كتابه ، بدءًا من حديثه عن أصل اللغة ونشأتها ، ومرورًا بطرق تحمل العلم باللغة ، ومعرفة الفصيح والمطرد والشاذ والنادر ، والمعَرب والمولّد ، وخصائص العربية في ظواهر الاشتقاق والحقيقة والمجاز ، والمشترك والتضاد والترادف ، والإتباع والإبدال ، والقلب والنحت ، والمثنى والمكنى والمبني ، والملاحن والألغاز ، والأشباه والنظائر … وانتهاء بالحديث عن آداب اللغوي ، ومعرفة ما ينتاب كتابة اللغة من التصحيف والتحريف ، وطبقات اللغويين وأسمائهم وكناهم وألقابهم وأنسابهم ، وأغلاط الشعراء والرواة وأكاذيب الأعراب ، وما إلى ذلك .

ولقد بلغت مصادر **السيوطي** في هذا الكتاب مائتي مصدر ، يعود أقدمها إلى القرن الثاني الهجري ، كالعين للخليل بن أحمد الفراهيدي ، وأحدثُها إلى الفيروز آبادي المتوفى (سنة ٨١٧ هـ) قبل السيوطي بحوالي قرن من الزمان .

وقد أتى السيوطي على الكثير من محتويات بعض هذه الكتب ، فنقلها إلى مزهره ، فقد نقل أكثر ما في كتاب «الإبدال» لابن السكيت ، ثم قال : «هذا غالب ما أورده ابن السكيت ، وبقيت منه أحرف أخرى ، أخَّرتها إلى النوع السابع والثلاثين والذي يليه . وفات ابنَ السكيت ألفاظ جمة مفرقة في كتب اللغة . ومن أهم ما فاته الإبدال بين السين والصاد ، نحو : السراط والصراط(١)» .

ومعنى هذا النص أن السيوطي ، لم يكن ينقل ما في مصادره ، نقلاً عشوائيًا ، وإنما هو نقل واع يتبع منهجًا وتخطيطًا بالغ الدقة .

ومثل ذلك أيضًا نقلُه ما ذكره الفيروز آبادي من أسماء العسل في كتابه : «**ترقيق الأسل لتصفيق العسل**» ، وقوله بعد أن انتهى منه : «قلت : ما استوفى أحد مثل هذا الاستيفاء ، ومع ذلك فقد فاته بعض الألفاظ(٢)» ، ثم استكمل هذه الألفاظ من أمالي القالي ، وأمالي الزجاجي(٣) .

ويشبه هذا أيضًا صنيعه مع كتاب «المثنى والمبني» لابن السكيت ؛ فقد نقل منه عشر صفحات كاملة ، ثم قال : «هذا ما أورده ابن السكيت في هذا الباب ، وقد جمع فأوعى ، ومع ذلك فقد فاته ألفاظ(٤)». وقد استدرك السيوطي هذا الفائت من ديوان الأدب ، والغريب المصنف ، والجمهرة ، وغيرها .

وأحيانًا ينقل السيوطي فصولاً كاملة من مصادره ،كما فعل ذلك حين نقل الفصلين الرابع والخامس من كتاب «**لمع الأدلة**» لأبي البركات بن الأنباري (٨٣ ـ ٨٤) بالحرف الواحد(٥) . وكما فعل في باب : «ذكر ما جاء في فُعالة» ؛ إذ نقله كله من «**الغريب المصنف**» لأبي عبيد ، وقال في آخره : «**هذا جميع ما في الغريب المصنف**(٦)».

وفي بعض الأحيان يلخص السيوطي ما في مصادره تلخيصًا شديدًا ، كما فعل حين لخص كتاب : «مراتب النحويين» لأبي الطيب اللغوي ، في عشرين صفحة ، وقال في آخرها : «انتهى كلام أبي الطيب في كتاب مراتب النحويين ملخصًا(٧)» . وهو لا يغفل الإشارة إلى ما لخصه من نصوص مصادره ، كما رأينا في العبارة السابقة ، وكقوله في موضع آخر مثلاً : «**انتهى كلام ابن جني ملخصًا**(٨)».

وقد نثر السيوطي كثيرًا من مسائل «**الصاحبي**» لابن فارس ، و«**الخصائص**» لابن جني ، في مزهره ؛ فقد نقل عن الأول ست صفحات كاملة في أحد المواضع ، ثم قال : «**هذا كله كلام ابن فارس**(٩)» . كما أكثر من النقل عنه في افتتاحيات كثير من أبوابه(١٠) . وقد نص السيوطي على استفادته الكاملة من هذا الكتاب ، فقال مرة : «**قلت** : قد رأيت نسخة من هذا الكتاب مقروءة على المصنف ، وعليها خطه ، وقد نقلت غالب ما فيه في هذا الكتاب(١١)» . كما نقل

عن «الخصائص» كثيرًا كذلك ؛ إذ نقل منه ست صفحات في أصل اللغة ، وقال في آخرها : «**هذا كله كلام ابن جني**(١٢)» . وهناك نقل آخر في سبع صفحات في موضوع : المهمل والمستعمل ، قال بعده : «انتهى كلام ابن جني(١٣)» . وفي باب : سقطات العلماء ، نقل عنه اثنتي عشرة صفحة ، وقال : «**انتهى ما أورده ابن جني**»(١٤) .

ومن أمثلة النقل المطوّل عن المصادر ، نقلُه رسالة في حوالي ثلاثين صفحة(١٥) ، من ديوان رسائل الشريف أبي القاسم علي بن الحسين المصري ، في الألغاز اللغوية ، ثم نقلُه المقامة الثانية والثلاثين في الألغاز من مقامات الحريري كاملة(١٦) .

ومع تطويله النقل عن بعض المصادر على هذا النحو ، نراه لا يستخدم في بعض الأحيان كل الكتب المتخصصة في الموضوع الذي يكتب فيه ، ففي موضوع «**المشجر**» مثلاً ، لم يستخدم السيوطي كتاب «**المداخل**» لأبي عمر الزاهد (٣٤٥ هـ) ، ولا كتاب : «**المسلسل**» لأبي الطاهر التميمي (٥٣٨ هـ) . وفي موضوع «**الإتباع**» لم يستخدم كتاب «**الإتباع**» لأبي الطيب اللغوي (٣٥١ هـ) . وكذلك في موضوع «**الإبدال**» لم يفد من كتاب «**الإبدال**» لأبي الطيب اللغوي شيئًا . ونراه كذلك في موضوع «**الأمثال**» لا يستخدم بعض الكتب المهمة ؛ مثل : «**جمهرة الأمثال**» لأبي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) و«مجمع الأمثال» للميداني (٥١٨ هـ) و«**المستقصى**» للزمخشري (٥٣٨ هـ) وغير ذلك .

* * *

وتنقسم مصادر السيوطي في مزهره ، إلى أنواعٍ شتى من حيث التخصص ، على النحو التالي :

١ ـ كتب في فقه اللغة ، كالصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ، والخصائص لابن جني .

٢ ـ معاجم عربية مرتبة على الموضوعات ؛ مثل : الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام ، وفقه اللغة للثعالبي(١٧) . أو مرتبة على المخارج ؛ مثل : العين للخليل بن أحمد ،

ومختصره لأبي بكر الزبيدي ، وتهذيب اللغة للأزهري ، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيدة ، واستدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزُّبيدي . أو مرتبة ترتيبًا هجائيًا أو على المباني ؛ مثل : الصحاح للجوهري ، والقاموس المحيط للفيروز آبادي ، والعباب للصاغاني ، وجمهرة اللغة لابن دريد ، وديوان الأدب للفارابي ، والمجمل لابن فارس .

٣ ـ كتب لغوية متخصصة في موضوع واحد ؛ مثل : **الإبدال لابن السكيت ، والأيام والليالي للفراء ، وما اتفق لفظه واختلف معناه للمبرد ، والمقصور والممدود لابن ولاد ، والأضداد لأبي بكر بن الأنباري ، والإتباع لابن فارس ، وشجر الدر لأبي الطيب اللغوي ، والمقصور والممدود لأبي علي القالي ، وما جاء على فعال للصاغاني ، والمثنى لأبي الطيب اللغوي ، والموازنة لحمزة بن الحسن الإصفهاني ، وخلق الإنسان للصاغاني ، والأجناس للأصمعي ، والمقصور والممدود لابن السكيت ، والفروق لأبي الطيب اللغوي ، والأصوات لابن السكيت ، والليل والنهار لأبي حاتم السجستاني .**

٤ ـ كتب في النحو الصرف ؛ مثل : الكتاب لسيبويه ، وأصول النحو لابن السرّاج ، وارتشاف الضرب لأبي حيان ، والتسهيل لابن مالك ، ولمع الأدلة لأبي البركات بن الأنباري ، وشرح التسهيل لأبي حيان ، وسفر السعادة للسخاوي ، والإنصاف لأبي البركات ابن الأنباري ، وشرح فصول ابن معط لابن إياز ، والغرة في شرح اللمع لابن الدهان ، وشرح المفصل للسخاوي ، وشرح الشافية للجاربردي .

٥ ـ كتب في لحن العامة ؛ مثل : إصلاح المنطق لابن السكيت ، وتهذيبه للخطيب التبريزي ، وأدب الكاتب لابن قتيبة ، وشرحه للجواليقي والزجاجي ، والفصيح لثعلب ، وشروحه لابن درستويه والمرزوقي وابن خالويه والبطليوسي ، وذيله للموفق البغدادي .

٦ ـ كتب الأمالي ؛ مثل : أمالي ثعلب المعروفة بمجالس ثعلب ، والأمالي لأبي علي القالي ، وأمالي الزجاجي ، وأمالي ابن دريد ، وأمالي أبي عبيد .

٧ ـ كتب النوادر ، كالكتب التي ألفها كل من أبي زيد الأنصاري ، وأبي محمد اليزيدي ، وابن الأعرابي ، ويونس بن حبيب ، وأبي عمرو الشيباني ، والنُّجَيْرِمي .

٨ ـ دواوين الأدب والمجاميع الشعرية ؛ مثل : يتيمة الدهر للثعالبي ، والأغاني لأبي الفرج الإصفهاني ، والكامل للمبرد ، وشرح المعلقات لأبي جعفر النحاس ، وربيع الأبرار للزمخشري ، ومقامات الحريري ، ونشوار المحاضرة للتنوخي ، وشرح شعر هذيل للسكري ، والحمقى والمغفلين لابن الجوزي ، وجمهرة أشعار العرب لمحمد بن أبي الخطاب ، وأيام العرب لأبي عبيدة ، وشروح المقامات للمطرزي والنحاس وسلامة الأنباري ، وشرح كامل المبرد لأبي إسحاق البطليوسي .

٩ ـ مجاميع أمثال العرب ؛ مثل : الزاهر في معاني كلمات الناس لأبي بكر بن الأنباري ، وجامع الأمثال لأبي علي أحمد بن إسماعيل القمي .

١٠ ـ كتب في البلاغة والنقد القديم ؛ مثل : الإيضاح للقزويني ، ومنهاج البلغاء لحازم القرطاجني ، وسر الفصاحة لابن سنان ، والعمدة لابن رشيق ، وعروس الأفراح لبهاء الدين السبكي ، والطريق إلى الفصاحة لابن النفيس .

١١ ـ كتب في الأصول والفقه ؛ مثل : شرح منهاج الأصول للإسنوي ، والمحصول لفخر الدين الرازي ، والوصول إلى الأصول لأبي الفتح بن برهان ، وشرح منهاج البيضاوي لتاج الدين السبكي ، وشرح المحصول للقرافي ، والملخص في أصول الفقه للقاضي عبد الوهاب السبكي ، والروضة للإمام النووي .

١٢ ـ كتب في التفسير ؛ مثل : تفسير الطبري ، والبحر المحيط للزركشي ، والتفسير لوكيع ، والتفسير لابن جزيّ .

١٣ ـ كتب في الحديث ؛ مثل صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، والمستدرك للحاكم ، وشعب الإيمان للبيهقي ، وغريب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ، والأدب المفرد

للبخاري ، ومسند أحمد بن حنبل .

١٤ ـ كتب في التراجم والطبقات ؛ مثل : طبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وأخبار النحويين البصريين للسيرافي ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي ، ومراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي ، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ومن سمي عمرًا من الشعراء لابن الجراح ، والمؤتلف والمختلف للآمدي .

١٥ ـ كتب تاريخية ؛ مثل : تاريخ دمشق لابن عساكر ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ حلب للكمال بن العديم ، وتاريخ المسعودي (مروج الذهب) ، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار .

* * *

هذه هي جمهرة المصادر التي رجع إليها جلال الدين السيوطي ، في تأليف موسوعته اللغوية : «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» . وبعض هذه المصادر مفقود لا وجود له الآن ؛ مثل : الأجناس للأصمعي ، والأصوات لابن السكيت ، والليل والنهار لأبي حاتم السجستاني ، والفروق لأبي الطيب اللغوي ، وشرح الفصيح لابن خالوية ، وأيام العرب لأبي عبيدة ، والنوادر لأبي عمرو الشيباني ، والنوادر ليونس بن حبيب .

وهذا الكتاب الأخير كان قليل الوجود في عصر ابن مكتوم (٧٤٩ هـ) ؛ إذ قال عنه السيوطي في المزهر : «وفي النوادر ليونس ، رواية محمد بن سلام الجمحي عنه ـ وهذا الكتاب لم أقف عليه ، إلا أني وقفت على منتقى منه ، بخط الشيخ تاج الدين بن مكتوم النحوي ، وقال عنه : إنه كتاب كثير الفائدة قليل الوجود(١٨)» .

وبعض مصادر السيوطي في مزهره ، لايزال مخطوطًا ينتظر من يحققه وينشره ، وينفض غبار الزمن عنه ، مستعينًا على تحقيقه بالنصوص التي اقتبسها السيوطي منه ، مثل الموازنة لحمزة ابن الحسن الاصفهاني ، وشرح المفصل للسخاوي ، وذيل تاريخ بغداد لابن النجار . ومن

المصادر المخطوطة ما هو تحت الطبع ، بعد أن اشتغل بتحقيقها بعض المعاصرين ؛ مثل : العين للخليل بن أحمد ، والمقصور والممدود للقالي ، والغريب المصنف لأبي عبيد ، وارتشاف الضرب لأبي حيان ، وسفر السعادة للسخاوي ، والأمالي لابن دريد ، والنوادر لابن الأعرابي .

ومن المصادر ما رآه السيوطي ، ثم افتقده في أثناء تأليفه للمزهر ، كهذا الكتاب الذي ذكره في النوع السابع والثلاثين ، في معرفة ما ورد بوجهين بحيث يؤمن فيه التصحيف ؛ فقال : «وقد رأيت من عدة سنين في هذا النوع مؤلفًا في مجلد ، لم يكتب عليه اسم مؤلفه ، ولا هو عندي الآن حال تأليف هذا الكتاب . ورأيت لصاحب القاموس تأليفًا سماه : تحبير الموشين فيما يقال بالسين والشين ، ولم يحضر عندي الآن ... فأعملت فكري في استخراج أمثلة ذلك من كتب اللغة(١٩)» .

وكتاب : **«فتيا فقيه العرب» لابن فارس ، الذي نشره حسين على محفوظ بدمشق سنة ١٩٥٨ م ، كان عند السيوطي كذلك ، ثم افتقده عند تأليف المزهر ، فقال : «وقد ألف ابن فارس تأليفًا لطيفًا في كراسة ، سماه بهذا الاسم (فتيا فقيه العرب) رأيته قديمًا ، وليس هو الآن عندي ... فنذكر ما وقع من ذلك في مقامات الحريري ، ثم إن ظفرت بكتاب ابن فارس ، ألحقت ما فيه**(٢٠)» . ويبدو أن السيوطي لم يظفر بهذا الكتاب مرة أخرى ، حتى مات رحمه الله .

ومثل ذلك يتحدث السيوطي عن كتاب : «ليس في كلام العرب» لابن خالويه ، فيقول في باب : معرفة الأشباه والنظائر(٢١) : «هذا نوع مهم ينبغي الاعتناء به ، فيه تعرف نوادر اللغة وشواردها ، ولا يقوم به إلا مضطلع بالفن واسع الاطلاع ، كثير النظر والمراجعة . وقد ألف ابن خالويه كتابًا حافلاً ، في ثلاثة مجلدات ضخمات ، سماه : كتاب ليس ، موضوعه : ليس في اللغة كذا إلا كذا . وقد طالعته قديمًا ، وانتقيت منه فوائد ، وليس هو بحاضر عندي الآن . وأنا أذكر إن شاء الله في هذا النوع ، ما يقضي الناظر فيه العجب ، وآت فيه ببدائع وغرائب ، إذا وقف عليها الحافظ المطلع ، يقول : هذا منتهى الأرب» .

وهذا أحد المواضع التي يظهر فيها أسلوب السيوطي ، في التقديم لأبواب المزهر المختلفة . أما الفوائد التي انتقاها من كتاب «**ليس**» لابن خالويه قديمًا ، فتظهر منثورة هنا وهناك في المزهر ، ومنها في أحد المواضع اثنتا عشرة صفحة ، قال في آخرها : «**هذا آخر المنتقى من كتاب ليس لابن خالويه**(٢٢)» .

وبعض مصادر المزهر كانت عند السيوطي بخطوط مؤليفها ؛ فقد ذكر أنه رأى تاريخ حلب للكمال بن العديم بخطه(٢٣) ، كما كانت عنده تذكرة الشيخ تاج الدين بن مكتوم القيسي بخطه(٢٤) ، وكانت عنده ثلاثة كتب للنجيرمي كلها بخطه ، وهي : التعليق(٢٥) ، والفوائد(٢٦) ، والنوادر(٢٧) ، كما نقل «من خط الشيخ بدر الدين الزركشي في كراسة له سماها : عمل من طَبَّ لمن حَبَّ(٢٨)» .

وتبلغ نسبة النصوص المنقولة عن كتب مفقودة ، في المزهر حوالي ٤٠ ٪ من حجم الكتاب . ومن هنا تبدو قيمة كتاب المزهر للسيوطي ، الذي حفظ لنا نصوصًا كثيرة ، ضاعت أصولها ولم تصل إلينا . وهو في مثل هذه النصوص يعدّ مصدرًا أصيلاً في البحث العلمي .

وتختلف معاملة السيوطي لمصادره من مؤلِّف إلى مؤلف ، فهو أحيانًا ينقل نقلاً حرفيًا ما أمامه من نصوص في مصادره ، مثلما ذكرناه من قبل ، من نقله الفصلين الرابع والخامس من كتاب : «لمع الأدلة» لابن الأنباري ، بالحرف الواحد .

وأحيانًا يتصرف ، ويقدم ويؤخر ، ويحذف ويختصر ، كما فعل في باب «الأضداد(٢٩)» الذي نقله من كتاب : «الغريب المصنف» لأبي عبيد القاسم بن سلام ؛ فإننا إذا طالعنا هذا الكتاب الأخير ، رأينا أبا عبيد يروي في باب الأضداد منه عن أبي زيد ، ثم عن اليزيدي ، ثم عن أبي زيد مرة ثانية ، ثم عن الأصمعي ، ثم عن أبي عبيدة ، ثم عن الكسائي ، ثم عن أبي زيد مرة ثالثة ، ثم عن الكسائي مرة ثانية ، ثم عن الأموي ، ثم عن الأصمعي مرة ثانية ، ثم عن عبيدة مرة ثانية ، ثم عن أبي عمرو ، ثم عن أبي عبيدة مرة ثالثة ، ثم عن الأحمر ، ثم عن الأصمعي مرة ثالثة ، ثم عن أبي عبيدة مرة رابعة ، ثم عن الأصمعي مرة رابعة ، ثم عن أبي

عبيدة مرة خامسة ، ثم عن الكسائي مرة ثالثة . وهكذا ينتهي الباب .

أما السيوطي فإنه جمع آراء كل عالم بعضها إلى بعض ، فبدأ بأبي زيد ، فالأصمعي ، فأبي عبيدة ، فالكسائي ، فالأموي ، فأبي عمرو ، فالأحمر . أما أبو عبيد فإنه كان ـ فيما يبدو ـ يدوّن في غريبه المصنف ، ما سمعه من شيوخه ، حسبما كان يقع إليه هذا المسموع يومًا بعد يوم . هذا إلى أن السيوطي ، حذف كلام اليزيدي ، والشواهد الشعرية المختلفة ، التي يمتلئ بها الغريب المصنف ، في هذا الباب .

* * *

وبعد... فماذا للسيوطي في كتابه : «المزهر» ؟ إن له أوّلاً فضلَ جمع الجزئيات الصغيرة من هنا وهناك ، في الموضوع الذي يكتبه . وهو يعزو كل قول إلى صاحبه في أمانة علمية فائقة . وإذا كانت تلك عادته في كل نقوله هنا وهناك ، فإننا لا ندري السرّ الذي جعله يجهّل مصدره في تلك المواضع القليلة جدًا في كتابه ، كقوله مثلاً : «وقال بعضهم(٣٠)» ، أو : «وفي بعض المجاميع(٣١)» أو : «قال أهل الأصول(٣٢)» ، أو : «قال المعري في بعض كتبه(٣٣)» ، أو : «قال صاحب زاد المسافر(٣٤)» ، أو : «رأيت لهذه الأبيات شرحًا في كراسة(٣٦)» .

ولم يخل كتاب : «المزهر» بالإضافة إلى هذا الجمع الدءوب ، والترتيب المعجب الرائق ، من خطرات هنا وهناك للمؤلف تعزى إليه وحده ، وهي في بعض الأحيان رأي له ، واجتهاد وصل إليه بثاقب فكره ، وطول خبرته باللغة .

فهو يدخل أحيانًا بجمل اعتراضية ، تفسر مبهما ، أو تشرح غامضًا ، أو تضيف جديدًا ؛ كقوله مثلاً : «وقال ابن جني في الخصائص ـ وكان هو وشيخه أبو علي الفارسي معتزليين(٣٦)» ، وتوضيحه اسم إسماعيل بن القاسم البغدادي ، بأنه «هو أبو علي القالي(٣٧)» ، وتعليقه على تعليم آدم للملائكة أسماء الأشياء ، بأن «في هذا فضيلة عظيمة ،

ومنقبة شريفة لعلم اللغة(٣٨)» ، ووصفه الراغب الإصفهاني بأنه «من أئمة السنة والبلاغة(٣٩)» ، وتعليقه على قول السيرافي إن الخليل بن أحمد عمل أول كتاب العين ، بأن «هذه العبارة من السيرافي صريحة في أن الخليل لم يكمل كتاب العين ، وهو الظاهر لما سيأتي من نقل كلام الناس في الطعن فيه ، بل أكثر الناس أنكروا كونه من تصنيف الخليل(٤٠)» .

وليست كل تعليقات السيوطي على هذا النحو من الاختصار . وهذه تعليقة طويلة ، يعرفنا فيها بقراءته لكتاب : «استدراك الغلط الواقع في كتاب العين للزُّبيدي» ويذكر لنا محتواه ، فيقول : «قلت : وقد طالعته إلى آخره ، فرأيت وجه التخطئة فيما خُطِّئَ فيه ، غالبه من جهة التصريف والاشتقاق ، كذكر حرف مزيد في مادة أصلية ، أو مادة ثلاثية في مادة رباعية ونحو ذلك . وبعضه ادّعى فيه التصحيف . وأما أنه يخطّأ في لفظه من حيث اللغة ، بأن يقال : هذه اللفظةُ كذب ، أو لا تعرف ، فمعاذ الله . وحينئذ لاقدح في كتاب العين ، لأن الأول الإنكار فيه راجع إلى الترتيب والوضع في التأليف ، وهذا أمر هيّن ؛ لأن حاصله أن يقال : الأَوْلى نقل هذه اللفظة من هذا الباب ، وايرادُها في هذا الباب ، وهذا أمر سهل ، وإن كان مقام الخليلُ ينزَّه عن ارتكاب مثل ذلك ، إلا أنه لا يَمنع الوثوقَ بالكتاب والاعتماد عليه في نقل اللغة . والثاني : إن سُلِّم ما ادُّعِيَ من التصحيف ، يقال فيه ما قالته الأئمة : ومن ذا الذي سلم من التصحيف ؟ مع أنه قليل جدًا(٤١)» .

ولا تخلو تعليقات السيوطي من الرد على ما لم يعجبه من آراء العلماء ، وتفنيدها بالحجج والبراهين ، مثلما ردّ على ابن جني قدحه في جمهرة اللغة لابن دريد ، فقال : «قلت : مقصوده الفساد من حيث أبنيةُ الصرف ، وذكرُ المواد في غير محالّها .. ولهذا قال : أعْذِرُ واضعَه فيه لبعده عن معرفة هذا الأمر ، يعني أن ابن دريد قصيرُ الباع في التصريف ، وإن كان طويل الباع في اللغة . وكان ابن جني في التصريف إمامًا لا يشق غباره ، فلذا قال ذلك»(٤٢)» .

وكما رد على الأزهري قدحه في ابن دريد ، ورمَيهُ بافتعال العربية وتوليد الألفاظ ، وأنه سأل عنه نفطويه ، فلم يعبأ به ولم يوثقه في روايته ، فقال : «قلت : معاذ الله ! هو بريء مما

رمي به . ومن طالع الجمهرة رأى تحرِّيَهُ في روايته ، وسأذكر منها في هذا الكتاب ما يعرف منه ذلك . ولا يقبل فيه طعن نفطويه ؛ لأنه كانت بينهما منافرة عظيمة .. وقد تقرر في علم الحديث أن كلام الأقران في بعضهم لا يقدح(٤٣)».

وكذلك رد على الفخر الرازي ، حين ذكر أن أهل اللغة أهملوا البحث عن أحوال اللغات ورواتها جرحًا وتعديلاً ؛ فقال : «وأقول : بل الجواب الحق عن هذا ، أن أهل اللغة والأخبار ، لم يهملوا البحث عن أحوالِ اللغات ، ورواتها جرحًا وتعديلاً ، بل فحصوا ذلك وبينوه ، كما بينوا ذلك في رواة الأخبار . ومن طالع الكتب المؤلفة في طبقات اللغويين والنحاة وأخبارهم ، وجد ذلك . وقد ألف أبو الطيب اللغوي كتاب : مراتب النحويين ، بيّن فيه ذلك ، ومّيز أهل الصدق ، من أهل الكذب والوضع (٤٤)».

وحين قال أبو الطيب في هذا الكتاب ، عن أبي عبيد القاسم بن سلام : «**ولا نعلمه سمع من أبي زيد شيئًا**» ، ردّ عليه السيوطي فقال : «**قلت** : **قد صرّح في عدة مواطن من الغريب المصنف ، بسماعه منه**(٤٥)».

وتبدو سعة علم السيوطي ، حين يهمل مصدره تفسير شيء ما ، فيعثر عليه السيوطي مفسرًا في كتاب آخر فيذكره ، كقوله مثلاً : «وقال ابن ولاد في المقصور والممدود : عُشُورا ، بضم العين والشين ، زعم سيبوية أنه لم يُعلم في الكلام شيء على وزنه ، ولم يذكر تفسيره ... قلت : ذكر القالي في كتاب : المقصور والممدود أن العشورا : العاشوراء . قال : وهي معروفة(٤٦)» .

وهو كثير التخريج لنصوص مصادره ، من أجل توثيقها ؛ فقد خرج من أحد المواضع مجموعة من الأخبار التي نقلها من كتاب : «الصاحبي» لابن فارس ، في المصاحف لابن أشتة ، والمستدرك للحاكم ، والأوائل لأبي هلال العسكري ، والطيوريات لأبي طاهر السلفي ، والمصاحف لأبي بكر بن أبي داود ، ومسند أحمد بن حنبل (٤٧) . وفي موضع آخر ، خرج حكاية رواها عن تصحيف العسكري ، في معجم الأدباء لياقوت ، والحمقى والمغفلين لابن الجوزي (٤٨) .

وهو في تعليقاته حريص كل الحرص على توثيق نقوله ، بذكر خطوط العلماء الذين نقل عنهم ؛ كقوله مثلاً : «وجدت هذه الحكاية ، مكتوبة بخط القاضي مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس ، على ظهر نسخة من العباب للصغاني ، ونقلها من خطه تلميذه أبو حامد محمد بن الضياء الحنفي ، ونقلتها من خطه(٤٩)». بل إنه ليعلمنا في بعض هذه التعليقات ، بملكيته لنسخة ثمينة من جمهرة اللغة مقروءةً على العلماء ؛ فيقول : «قلت : ظفرت بنسخة من الجمهرة بخط أبي النمر أحمد بن عبد الرحمن بن قابوس الطرابلسي اللغوي ، وقد قرأها على ابن خالويه ، بروايته لها عن ابن دريد ، وكتَب عليها حواشيَ من استدراك ابن خالويه على مواضع منها ، ونبه على بعض أوهام وتصحيفات(٥٠)» . وهو في أحد المواضع يقابل نُسختين من كتاب الجمهرة ؛ فيقول : «وقال ابن دريد في الجمهرة : باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغز. وفي نسخة : حتى صار كاللغة(٥١)» .

ويبدو في بعض تعليقات السيوطي ، استدراكه المكمل لبعض المؤلفات السابقة ، فقد استدرك على القاموس المحيط أشياء وقال : «قلت : ومع كثرة ما في القاموس من الجمع للنوادر والشوارد ، فقد فاته أشياء ظفرت بها في أثناء مطالعتي لكتب اللغة ، حتى هممت أن أجمعها في جزء مذيلاً عليه(٥٢)» . كما استدرك على كتاب : «الاتباع» لابن فارس ، وقال : «وقد ألف ابن فارس تأليفًا مستقلاً في الإتباع ، وقد رأيته مرتبًا على حروف المعجم ، وفاته أكثر مما ذكره. وقد اختصرت تأليفه وزدت عليه ما فاته ، في تأليف لطيف سميته : الإلماع في الإتباع(٥٣)».

وهو أحيانًا يذكر الأقوال المناظرة لما هو فيه ، فبعد أن ذكر عن «الصاحبي» لابن فارس ، أن ابن خالويه قال : جمعت للأسد خمسمائة اسم وللحية مائتين ، قال : «قلت : ونظير ذلك في فقه اللغة للثعالبي : قد جمع حمزة بن الحسن الإصبهاني من أسماء الدواهي ما يزيد على أربعمائة ، وذكر أن تكاثر أسماء الدواهي من الدواهي . قال : ومن العجائب أن أمَّةَ وَسَمَّتَ معنى واحدا بمئين من الألفاظ(٥٤)» .

ونرى من بعض تعليقات السيوطي ، كيف أن علمه ــ رحمه الله ــ كان ينمو بكثرة الاطلاع على المصادر المختلفة بمرور الأيام ؛ فهذه فائدة استفادها من جمهرة اللغة ، كان قد سئل عنها فلم يعرفها ، يقول : «وهذه فائدة لطيفة ، لم أرها إلا في الجمهرة ، فكانت العرب تسمى : صفر الأول وصفر الثاني ، وربيع الأول وربيع الثاني ، وجمادى الأولى وجمادى الآخرة ، فلما جاء الإسلام وأبطل ما كانوا يفعلونه من النسيء ، سماه النبي ﷺ شهر الله المحرم .. وبذلك عرفت النكتة في قوله : شهر الله . ولم يرد مثل ذلك في بقية الأشهر ولا رمضان . وقدكنت سئلت من مدة عن النكتة في ذلك ، ولم يحضرني فيها شيء ، حتى وقفت على كلام ابن دريد هذا(٥٥)» .

وهذه فائدة أخرى وجدها السيوطي عند ثعلب ، بعد أن طال سؤاله عنها ؛ فقد قال بعد أن روى عن ثعلب في أماليه شرحًا للمثل : «لا يدري الحيّ من الليّ» أي لا يعرف الكلام البيّن من الكلام غير البيّن : «قلت : رضي الله عن سيدي عمر بن الفارض ، ما كان أوسعَ عِلمَهُ باللغة ! قال في قصيدته اليائية :

صار وصفُ الضر ذاتيًّا له   عن عناء والكلامُ الحيّ ليّ

ولما شرحت قصيدته هذه ما وجدت من يعرف منها إلا القليل . ولقد سألت خلقًا من الصوفية عن معنى قوله : والكلام الحيّ ليّ ، فلم أجد من يعرف معناه ، حتى رأيت هذا الكلام في أمالي ثعلب(٥٦)» .

ولم تخل بعض تعليقات السيوطي من الوهم . ومن ذلك اعتقاده أن كلمة : «السبت» تعني في أصل اللغة : «الدهر» ؛ فقال في موضوع العام الذي خصص : «ثم رأيت له مثالاً في غاية الحسن ، وهو لفظ : السبت ، فإنه في اللغة : الدهر ، ثم خصص في الاستعمال لغة بأحد أيام الأسبوع وهو فرد من أفراد الدهر(٥٧)» . والحقيقة أن «السبت» كلمة معربة عن العبرية שַׁבָּת Šabbāṯ ومعناها : الراحة !

ولكن مثل هذا الوهم نادر ولا يقلل البتة من قيمة الفوائد الجليلة ، التي نثرها في صفحات كتابه الضخم ؛ كقوله مثلاً : «فائدة : حيث أُطلق أبو عبيد في الغريب المصنف وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ، ولا من تغلب **واليمن** ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ، ولا من بكر لمجاورتهم **للقبط** والفرس(٥٨)» .

ويقف المرء حائرًا أمام هذا النص ؛ إذ كيف يمكن لليمن أن تكون بالجزيرة مجاورة لليونان ؟ ثم كيف لبكر أن تمتد بجناحيها في شمالي الجزيرة العربية ، فتجاور في الشرق الفرس في ايران ، كما تجاور في الغرب القبط في مصر . وصواب العبارة كما في المصادر : «ولا من تغلب **والنمر** فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين **للنبط** والفرس(٥٩)» . فانظر كيف حرفت كلمة : «النمر» فصارت في نشرة المزهر : «اليمن» ، كما حرفت أختها : «النبط» ، فصارت في هذه النشرة كذلك : «القبط» !

(ج) روى السيوطي النص التالي عن ابن درستويه ؛ فقال : «قال ابن درستويه في شرح الفصيح : قول العامة : نحوي لغوي ، على وزن : جهل يجهل ، خطأ أو لغة رديئة(٦٠)» . وفي هامشه تعليقًا على عبارة : «نحوي لغوي» ، قال محققو المزهر : «لم نقف على ضبط هذه العبارة» !

وهذا الذي لم يقف على ضبطه محققو الكتاب ، موجود على الصواب في مصدره : تصحيح الفصيح لابن درستويه ، وهو قوله : «فتقول : غَوِيَ يَغْوَى ، على نحو : جهل يجهل(٦١)» .

∘ ∘ ∘

وبعـد .. فقد بلغ السيوطي في تآليفه شأوا لا يدرك ، وجهدًا تقصر دونه الخطى .. وكتابه : «المزهر في علوم اللغة وأنواعها» تاج على رءوس هذه المؤلفات ، وغرة في وجه هذه التصانيف ، يشهد له بطول الباع في الدراسات اللغوية العربية ، والصبرِ والجلد في القراءة والجمع . رحم الله السيوطي رحمة واسعة ..

◦ الهوامش ◦

(١) المزهر ١/ ٤٦٩ .
(٢) المزهر ١/ ٤٠٩ .
(٣) في الأصل : «الزجاج» وهو تحريف .
(٤) المزهر ٢/ ١٨٢ .
(٥) المزهر ١/ ١١٣ - ١١٤ .
(٦) المزهر ٢/ ١١٩ - ١٢٠ .
(٧) المزهر ٢/ ٣٩٥ - ٤١٤ .
(٨) المزهر ١/ ٣٥٩ .
(٩) المزهر ١/ ٦٦ - ٧١ .
(١٠) المزهر ١/ ٣٢١ - ٣٤٥ .
(١١) المزهر ١/ ٤٠٣ .
(١٢) المزهر ١/ ١٠ - ١٦ .
(١٣) المزهر ١/ ٢٤٠ - ٢٤٧ .
(١٤) المزهر ٢/ ٣٦٩ - ٣٨١ .
(١٥) المزهر ١/ ٥٩١ - ٦٢١ .
(١٦) المزهر ١/ ٦٢٢ - ٦٣٥ .
(١٧) يلاحظ أن السيوطي لم يستخدم معجمًا مهما من معاجم الموضوعات ، وهو «المخصص» لابن سيدة .
(١٨) المزهر ٢/ ٢٨٩ .
(١٩) المزهر ١/ ٥٣٧ .
(٢٠) المزهر ١/ ٦٢٢ .
(٢١) المزهر ٢/ ٣ .
(٢٢) المزهر ٢/ ٧٨ - ٩٠ .
(٢٣) المزهر ٢/ ٢٢٥ .
(٢٤) انظر : المزهر ١/ ٢٧٥ ؛ ١/ ٤٢١ .
(٢٥) المزهر ١/ ٣٨٢ .
(٢٦) المزهر ٢/ ٣٠٤ .
(٢٧) المزهر ٢/ ٢٩١ .
(٢٨) المزهر ٢/ ٣٦٦ .
(٢٩) المزهر ١/ ٣٨٩ - ٣٩١ .
(٣٠) المزهر ١/ ٩٤ ؛ ١/ ٢٧٤ ؛ ٢/ ٢٨٦ وفي الموضع الأخير ذكر السيوطي قصيدة توجد في المقامة السادسة والأربعين من

مقامات الحريري ، وهي المقامة الحلبية . ولا ندري السرّ في إغفاله مصدره هنا ؟!

(٣١) المزهر ٢/ ٣٦٨ .

(٣٢) المزهر ١/ ٣٦٨ ؛ ١/ ٣٨٧ ؛ ١/ ٤٠٥ .

(٣٣) المزهر ٢/ ١٠٥ .

(٣٤) المزهر ٢/ ٣٥١.

(٣٥) المزهر ١/ ٣٨٠ .

(٣٦) المزهر ١/ ١٠ .

(٣٧) المزهر ١/ ٨٣ .

(٣٨) المزهر ١/ ٣٠ .

(٣٩) المزهر ١/ ٢٠١.

(٤٠) المزهر ١/ ٧٦ .

(٤١) المزهر ١/ ٨٦ .

(٤٢) المزهر ١/ ٩٣ .

(٤٣) المزهر ١/ ٩٣ - ٩٤ .

(٤٤) المزهر ١/ ١٢٠ .

(٤٥) المزهر ٢/ ٤١٢ .

(٤٦) المزهر ١/ ١٦٩ .

(٤٧) المزهر ٢/ ٣٤١ - ٣٤٣ .

(٤٨) المزهر ٢/ ٣٥٤ .

(٤٩) المزهر ١/ ٩٥ .

(٥٠) المزهر ١/ ٩٥ .

(٥١) المزهر ١/ ٢٧٩ وفي الجمهرة ٣/ ٤٩٩ : «كاللغة» .

(٥٢) المزهر ١/ ١٠٣ .

(٥٣) المزهر ١/ ٤١٤ ويحمل قوله (١/ ٤٢٠) : «وفي كتاب إلماع الإتباع لابن فارس» على السهو ! .

(٥٤) المزهر ١/ ٣٢٥ .

(٥٥) المزهر ١/ ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٥٦) المزهر ١/ ٥٠١ .

(٥٧) المزهر ١/ ٤٢٧ .

(٥٨) المزهر ١/ ٢١٢ .

(٥٩) الاقتراح ١٩ وانظر الحروف للفارابي ١٤٧ .

(٦٠) المزهر ١/ ٢٢٥ .

(٦١) تصحيح الفصيح ١/ ١١٩ .